لماذا ياوزارة الثقافة!؟

الثقافة العراقية ومحنة الخارج والداخل

د/ عواطف نعيم

قبل الدخول الى موضوع الثقافة العراقية ومشكلاتها لابد من سؤال: ماالذي نعنيه بالثقافة؟؟ أهي حالة من الترف وفسحة مفتوحة لها؟ ام هي ضرورة اجتماعية ووطنية وتعبير عن الذاتي المشروع والمبدئي والمسؤول ووجه بهي للحضارة ونتاج ابداعي يؤشر ويعلن عن الطاقات الخلاقة والعقليات المبتكرة؟؟ فاذا امنا، ولابد لان من هذا الايمان بان الثقافة ضرورة اجتماعية وهاجس وطني ومسؤولية اخلاقية واعية ففي هذه الحالة لابد لنا من التعامل معها بدافع التنمية والتعزيز والسعي الحثيث لانضاجها وتفعيلها لتكون مؤشراً لمستوى جمالي وفكري وفني يضعنا في موضع الالتزام والاهلية لان نتواصل في رفد مسيرة ثقافية وانتاج حركة معرفية وخلق جهد من التراكم والثراء في المشهد الثقافي العراقي جدير بان يضاهي وينفرز ويعلم في اطار المشهد الثقافي الانساني، وعند وجود هذا الهاجس وهذا الفهم والتوجه لابد لنا من ان نتعامل مع آلية الثقافة واشتغالاتها على وفق وعي وتنظيم ومنهج مدروس ودقيق ومجرد من الشوائب والمعوقات!! وبالتأكيد ان الثقافة تشتمل في توجهاتها على الانواع الادبية والفنية، المتعددة والمسرح واحد من تلك المرافق الحيوية التي تغني الثقافة وتؤسسها ولاسيما وصف كأب للفنون جميعا والمسرح العراقي وجه من اوجه الثقافة العراقية أخذ من الشعر والموسيقى والرقص وفن التشكيل كما اخذ من الرواية والقصة خالقاً تناغما ولحمة فيما بينها جميعا من خلال منجز ابداعي بسطع فوق خشبة المسرح، والمسرح العراقي بتاريخه العريق الذي أسس له وطور فيه ورفد مسيرته نخبة من المبدعين والمجتهدين والمثابرين من اجيال مختلفة الرواد منهم والجيل الاوسط ثم جيل الشباب المتواصل بالعمل وجيل اخر جديد غض بدأ عوده يقوى وحلمه يزهر ويبشر بعطاء لم يكن هذا المسرح في كل ظروفه والتي كانت في اغلبها ظروفا عصيبة ومضنية الا وسيلة من وسائل التنوير والتثوير والتحريض والتوجية بمختلف الاساليب وانواع الطرق الفنية والفكرية وكان حين تشتد الحال وتحتد عيون الرقابة والرقيب، يلجأ الى الترميز والتشفير والايحاء والتلميح مستعينا بعلم الدلالة متلاعبا بالالفاظ والصور والايماءات معتمداً لغة الحوار الملغز حيناً ومؤولاً التشكيل البصري في احيان اخرى لايصال خطاب مسرحي يحمل هموم الناس ويعبر عن تطلعاتهم واحلامهم المسحوقة بالقمع والخوف، ويكون ضميراً وفيا لزمنه والثقافة فعل معرفي لايتجزأ مادام يتمثل ضمير المجتمع ونبضه وليس هناك تقسيمات حين نسمي الاشياء فهذه ثقافة عراقية دون ان نضع فوارق وتمايز وتصنيف بين هذا المثقف او ذاك الا بمقدار ابداعه وتفرده وجدة المنجز الذي يقدمه، وعلى وفق هذا المفهوم فالباب مفتوح امام كل مثقفي العراق على اختلاف انتماءاتهم وتوجهاتهم للعمل والابتكار والنحت لاثراء الثقافة العراقية وانضاج التجربة الفنية على اختلاف تنوعها بما يؤهلها كي تكون ذات خصوصية وسمة مشرقة وجليلة، وعلى الجهات المسؤولة والمشرفة من وزارات ومؤسسات ان تعمل لتوفير المناخ الملائم والحضن الداعم لتواصل الفعل الثقافي بهذا الاتجاه دون وضع فروق او تسميات وتمايز بين فئة واخرى: لكن الذي يحدث في خضم هذه الفوضى وظاهرة العنف والفساد الاداري والمالي الذي استشرى وتفاقم منذ بداية التغيير، وبروز كابوس للاحتلال وتكريس التحزبية والتحيزية والتعصبية وظهور ممارسات وتلاعبات خطيرة طفت وطغت داخل المشهد الثقافي العراقي يقصدية بينة تجلت في خلق حالة من التجزئة والانحياز والتحايز لما يسمى بمثقفي الخارج ومثقفي الداخل ووزارة الثقافة بوصفها الجهة المعنية بالظاهرة الثقافية العراقية والتي يتميز نتاجها بأنه ظاهر ومعلن غير قابل للتغطية او الاخفاء فهو اما مقروء او مرئي او مسموع، كانت من اولى المساهمين في تكريس وطغيان هذا التوجه التجزيئي الذي يفت في بنية الثقافة العراقية وينمي حالة من الاحباط والخيبة والنكوص، ولاسيما انها عمدت وبشكل ظاهر من خلال تنصيب عدد من الاداريين العاملين في الدوائر التابعة لها ممن منحتهم صلاحيات لتنفيذ آلية العمل في دوائرهم عمدت الى تعميق هذه الممارسة الخطيرة، اذ ان الصلاحيات الممنوحة الى هؤلاء الاداريين الجدد قد تحولت الى وسائل جديدة للقمع والتهميش والتحجيم لابعاد عدد من الرموز الفنية والثقافية عن المشهد الثقافي العراقي ومحاولة ازوائها في العتمة والعطالة بدوافع لانظن ان المصلحة العامة احد اسبابها!! وحين لجأ هؤلاء المبعدين والمحجمين الى وزارة الثقافة للحوار والسؤال والمطالبة بحقوقهم في العمل والانجاز اصطدموا بجدار جديد من بيروقراطية جديدة تليق بالعهد الجديد للعراق الجديد الذي بشروا به، فقد أفضى الباب الواحد عن اربعة ابواب قابلة للزيادة وانشطر المكتب الواحد الى أربعة مكاتب قابلة هي الاخرى للزيادة وبقي هؤلاء المثقفون امام ابواب المسؤول الاول في وزارة الثقافة منتظرين ان يمن عليهم احد بالجواب شاعرين بالاهمال والتجاهل المتعمد وزاد في سوء الحال انهم اكتشفوا ان ذات الوزارة قد قدمت دعماً سخياً لزملاء اخرين من مثقفي العراق ممن قدموا من خارجه لتقديم نتاجات مسرحية في الوقت الذي قدمت فيه الوزارة دعماً بمبلغ محدود جداً لاقامة مهرجان ضم عروضا تزيد عن الثمانية ولم تكن المبالغ المرصوده لتلك العروض المسرحية تزيد عن الاجور الممنوحة لعامل اجرة يقدم عملا يدويا وليس هناك في ايام الاسبوع المحددة كما نعلم بسبعة ايام يوماً مخصصاً لمقابلة المسؤول الاول في الوزارة وليس هناك سوى الوعود المعسولة والابتسامات العريضة والمحاولات الخفية للازاحة والابدال والاستبدال والاحلال وتسريب المعلومات المشوهة والمختلقة والمسيئة ضد هذا الرمز او ذاك المبدع تحت شتى الذرائع والحجج الواهية، وكأن العملية برمتها محاولة مجموعة لهدم الثقافة العراقية وتقويض صرحها وتسطيحها من خلال تجريدها من رموزها واعلامها ومعاقبة من اختار منهم البقاء في العراق لان آمن بأن للوطن حقوقاً وواجبات لابد من حفظها وأجيالاً لابد من تثقيفهم وثقافة عراقية لابد من حمايتها وتواصلها ونسوا ان قرار البقاء او المغادرة هو اختيار وقناعة شخصية!! لذا لابد من خلق وحدة عراقية حقيقية وتعاون مبني على الفهم الواعي والمسؤولية الوطنية لخلق حالة من التناغم والتفاعل والتكافؤ في العمل والانجاز لكل العراقيين بعيداً عن التخزبية والتحيزية الذاتية والمقيتة والثأرية المتخلفة التي لن تغذي سوى التمزق ومناف جديدة وحلم اخر بعراق جديد اخر وطريق جديد لعذاب ومعاناة اخرى!!!

شارع دجلة أوراق من سيرة مبكرة للألم

الحلقة (٣)

عبد الخالق كيطان

الى أبي.. تذكارا للأيام المرة.. وللغياب والناس..

(٥)

البرد شديد جداً في هذا البستان ، الوقت عصراً ولهذا اطلقت العنان لقدمي في ان تتجولا بين النخيل ودجلة يحف به، حنوناً كعادته أثناء تجوالي شاهدت الكثير جداً من الناس، ثمة معارف واصدقاء واقرباء توزعوا هنا وهناك في حلقات صغيرة، لمحت سيارة عمي، بالاحرى هو ليس أخاً لأبي من الوالدين، انه اخوه من الام فقط، ولطالما كانت علاقة العائلتين متوترة، ولهذا لم افكر ابدأ في السلام عليهم، على انني لمحت سيارتهم البيك أب محملة بالمؤن والافرشة التي فاتنا في البيت ان نفكر بها، ربما لأننا لم نكن نتوقع البقاء كثيراً حيث نحن، وربما ايضاً لان عمي كان في ايام الحكم الملكي ضابطاً في الشرطة ولهذا فطبعه ميال للحيطة والحذر بما ستؤول اليه الامور في مثل هذه الظروف.

معارف لم اكن قد التقيتهم منذ سنوات، منذ ان ركبت منشأة نيسان الزرقاء صيف ١٩٨٨قاصداً بغداد، حيث ادرت ظهري للكثير من التفاصيل، الاصدقاء، الحكايا، وفي نيتي مجد آت، وبغداد انذاك كانت مدينة بحق وحقيقة، نعم اذتها كثيراً حرب ثماني السنوات، على الاقل هذا مايشهد به من عاش بغداد ايام عزها القريب في الستينيات والسبعينيات اي ايام ما قبل الدمار والصواريخ والطائرات، ولكني كنت اراها بشكل اخر يختلف تماماً عن الذي يصوره هؤلاء لي، مدينة عظيمة فيها كل شيء: سينمات، مسارح، جامعات، اندية ثقافية، بارات، باصات حمراء من طابقين، مكتبات ضخمة، مقاهي بأصناف: أم كثلوم، حسن عجمي والزهاوي وفريد الاطرش والمقام العراقي والبرازيلية، ايضاً ثمة نساء جميلات جداً، وأنا الناحل الذي مالامس يوماً خد امراة قط..! ماذا أحكي عن بغداد التي رأيتها وعشت في أرذل حاراتها: الحيدر خانه، لفترة ثلاث سنوات متتالية قبل عام ١٩٩١ وسبع سنوات بعدها؟.. ولأنني احب ما أفكر به وأنتمي إليه فقد اندمجت ومجتمعات النخب الثقافية في بغداد سواء في كلية الفنون الجميلة أو في مقهى حسن عجمي او في منتدى الادباء والشباب في الطالبية او في تأسيس ملتقى شبابي في منطقة حي القاهرة برفقة بعض الاصدقاء ابرزهم الشاعر فرج الحطاب والقاص قاسم محمد عباس، كنت مهموماً بالشعر والفن، وزاد في ذلك صداقاتي العديدة التي حفلت بذكريات رائعة مع شعراء ومسرحيين ونقاد وصحفيين وقصاصين، وذكريات جميلة ومرة ايام عملي في منتدى الادباء الشباب ضمن مؤامرة ثقافية كبرى انطلت علي وسرعان مااكتشفتها فعلقت عملي فيه بالرغم من انني كنت منتخباً في المنتدى.

لقد تعلمت الكثير جداً في الاكاديمية حيث التقيت بفنانين كبار واساتذة كانت علاقاتي معهم تنمو اسرع من نموها مع زملائي من الطلبة، وهذا ماأثار حفيظة الكثير منهم حيث اعتبرني بعضهم وصولياً وآخرون عدوني انتهازيا، ونسبة جدية منهم ترجمني بالتملق لأساتذتي، وعندما مضينا أنا والفنان شفيق المهدي في الاكاديمية في تأسيس ملتقى أدبي أطلق المهدي عليه تسمية غريبة (جماعة تحت المنبر) كان علي ان اتلقى هجاء آخر ومديحاً من طراز جميل، وانتهى الامر بهذه الجماعة التي ضيفت أسماء جيدة في الثقافة الوطنية بأن توقف نشاطها بسبب تقرير حزبي خرجت والمهدي منه لحظنا الجبار وإلا كانت الامور ستأخذ طريقاً اخر، الاكاديمية في نهاية الثمانينيات كانت قد بدأت تتدنى في كل شيء من العلم الى الاخلاق، ومع ذلك، سعادتي فيها لم تكن توصف، صحيح انني كمراهق منفلت من رقابة العائلة باعتباري أعيش وحيداً في بغداد قد مرت بي العديد من اللحظات العدمية، الا انني كنت أعالجها بالشعر وإدمان مشاهدة المسرح، كتبت أثناء دراستي العديد من القصائد الغامضة والتجريبية، ثم كانت تجربتي مع قصيدة النثر اليومية، ادرك الان ان الشعر يحتاج الى حياة شعرية كاملة، فهل عشت حياتي شعرياً؟، لاادري، ولكنني أدرك تماماً أني مارست الموبقات كلها، ذهبت الى بيوت الدعارة، سكرت كثيراً في بارات السعدون وأبي نؤاس وفي غرفتي في (فندق عدنان الحديث) فيما بعد.. لم أكن لصاً او مخبراً، كما لم اكن لوطياً او قاطع طريق، عشت بسلام دائم، لا أحشر نفسي ابداً في شجار يصادفني، بل ألف العديد من الشوارع والأزقة لأبتعد عن مثل هذا الشجار، لم أكن أشرب لأسكر او اشتم الحكومة او اعتدي على اصدقائي انا شخص مسالم ، أشرب دون ان ادري لماذا، ولكني أعرف لماذا أدخن! حتى موائدي لم تكن صعلوكية الطابع، بل كنت أحرص على ان تكون مائدتي متكاملة، كان أول مبلغ رسمي تسلمته عن نشري لقصيدة في عام ١٩٨٨ وكان حينها (عشرون ديناراً) تسلمتها من جريدة (العراق) التي نشرت القصيدة وعنوانها (انشطار) والتي اخذها مني للجريدة الشاعر حسن النواب عندما كان يزور العمارة قادماً من جبهات الحرب ليسكر او يلتقي بالادباء، وبعد تجربة متواضعة أسقطت هذه القصيدة ومئات غيرها من ارشيفي كما لم ادخلها وغيرها في اي من المجموعتين اللتين أصدرتها فيما بعد، العشرون ديناراً هذه كانت كافية للاحتفاء بفيلق من الاصدقاء ايام كان الدينار العراقي بكامل عافيته، بدأت انشر هنا وهناك، وخاصة في جريدة (الطلبة والشباب) التي كنت أتسلم منها مبالغ جيدة في ذلك الوقت عن تحقيقات ومقالات وقصائد أنشرها فيها..

حياتي-إذن- في بغداد لم تكن رتيبة او مملة، شيء واحد كنت أشعر بالنقص إزاءه، المرأة، حيث كنت أتورط في علاقات غرامية محمومة مع اجمل نساء الاكاديمية، ولكن من طرف واحد، هو طرفي على أية حال،! مفارقة غريبة ان اختار اجمل الجميلات، ومن ينتمين الى طبقة برجوازية هائلة الثراء في الوقت الذي كانت فيه ملابسي التقليدية جداً تنفر مني اي امرأة، هذا الموضوع جلب لي سخرية أصدقائي التي يحركها المزاح دائماً، كنت اخرج من حب هذه الفتاة لادخل في حب تلك دون ان اتحصل من اي واحدة منهن سوى نظرة شفقة لا.. استخفاف!، وأخيرا حسمت أمري: سأقاطع هذه الوجوه وادلف الى بيوت الحيدر خانة، هناك يكمن الواقع وتكمن الواقعية، وهناك أيضاً ثمة جمال من طراز خاص.. وربما رفيع!، صحيح انني كنت في بداياتي، وان سؤالاً مثل: ماالذي قادك الى هذا الطريق؟ كان لايفارق شفتي وأنا أعطي ظهري الى السماء، وصحيح أيضاً إنها/ إنهن كن يزجرنني لسؤالي الفظ، الذي لايخلو من براءة، الا انني تمرنت جيدا ولهذا كففت- فيما بعد- عن طرح مثل هذه الاسئلة، خاصة بعدما اعترف لي الكثيرون بخبرتي، بل ان بعضهم، وكان ذلك ايام كنت جندياً في مدرسة الشؤون الادارية في التاجي، طلب مني القاء محاضرة تاريخية جغرافية جمالية عن بيوت الحيدر خانة بدلاً من محاضرة عريفنا حول الخط والرسم، وقد اخذ العريف المسكين موقعه بين الزملاء مستمعاً لي وانا ارسم خارطة الحيدر خانة على السبورة واشير الى بيوتاتها ونزلائها بيتا بيتا ونزيلا نزيلا.

أما ايام عودتي الى العمارة لزيارة اهلي واصدقائي، فكان طقسا للفرح والمحبة عند أهلي، وطقسا لسماع اخر الاخبار حول الثقافة والشعر في بغداد، والتي انقلها لشلتي الاثيرة في العمارة، واهم من فيها على أنور الهندي وعلي سعدون، كنا ننام أيامها في العسل، والسياسة بدأت تفرض علينا وجودها القاسي حتى أصبحت هي الحقيقة الواحدة الوحيدة يوم أصبحنا ونحن نسمع عن دخول الجيش العراقي الى دولة الكويت (الشقيقة!) واعلان (الوحدة الاندماجية التي لارجعة عنها!! واعتبار دولة الكويت): المحافظة التاسعة عشرة)!

(٦)

يبدو ان صورة المرأة التي حضرها المخاض في البستان هي الصورة الأبرز التي لن أستطيع أغفالها، صمت لايخرقه سوى أصوات رصاص متناثر وعويل أطفال يأتي من بعيد.. بعيد جداً.. الظلام هو سيد المكان، والبرد كان شديداً جداً خاصة ان البستان كان متكئاً على نهر دجلة العذب، صرخت المرأة بقوة وفزع، وفزع الجميع لصراخها، اعتقدنا أنها اصيبت برصاصة تائهة، النسوة هرعن إليها، وبعد دقائق عرف المئات من النازحين الى هذا البستان قصة صراخ المرأة: لقد حلت ساعة ولادتها، طبعاً الأمر ليس مستحيلاً، ثمة الحلول السريعة في كل الازمات، وتمت الولادة عندما سمعنا الهلاهل في وقت لم يتوقع احد منا صوتها في هذا البستان...!

بعد يومين وليلة في مكاننا هذا علمنا ان القوات النظامية قد فرضت سلطتها وسلطة الحكومة من جديد في المحافظة وعلينا العودة الى بيوتنا لئلا تتعرض للنهب والسرقة، وعدنا فعلاً، وفي طريق العودة التقيت من يحذرني:

-لاتعد الى بيتكم..

-لماذا؟

-إنهم يأخذون الشباب من عمرك للإعدام!

-ماذا؟

في الحقيقة لم أكن في أي يوم من الايام بطلاً اتعارك مع الموت.. وعندما شاهدت من بعيد السيارات العسكرية تعتقل بعشوائية، خفت، ولكن أبي، حيث كنت أمشي لصقه، قال بجملة واحدة واثقة حاسمة:

-لن يأخذوك، وان فعلوا، سأكون قبلك.

وكانت هذه الجملة كفيلة بطمأنتي، فأنا أعرف جيداً صلابة أبي وعناده، ووصلنا الى بيتنا الذي قلت سابقاً عنه انه على مقربة من بستان النزوح، دخلت البيت ولم أستطع الصمود بدون سيجارة، ذلك انني لم ادخن طيلة الطريق مادام والدي يمشي الى جواري، ولهذا أخذت واحدة واسرعت الى باب المنزل من جديد كي أدخن.. سيارات الجيش لم تنقطع والعجيب ان رجالها كانو نظيفين جداً، حتى السيارات نفسها كانت نظيفة لدرجة لافتة، نظافة ملابس ووجوه وسيارات ومعدات وأسلحة هؤلاء الرجال لاتشي بأنهم خرجوا للتو من هزيمة عسكرية مدوية، فأين كانوا إذن.!

التفت الى اليسار وشاهدت في عمق المشهد، نهاية الشارع، عربة يجرها حمار وخلفها امرأة تصرخ وتعول، أدرت وجهي ودخلت البيت، لحظة، ثم قررت الخروج من جديد، كانت المرأة كمن ينادي علي، عدت أدراجي الى البيت ولكنني رجعت الى باب الدار من جديد وكانت العربة قد اقتربت.. ميزت عليها أطفالاً.. انني أعرفهم.. والمرأة كذلك، وقد صرخت عندما اقتربت أكثر لتقطع شكي بيقيني:

-أخوك مات!

ماصعوبة العمل الأدبي؟

فكتور شكلو فسكي

ترجمة / عادل العامل

كان الكاتب الروسي فكتور شكلوفسكي في الثمانين من عمره عندما نشر هذه المقالة الغنية بالمعاني، التي يتحدث فيها عن مدى صعوبة العمل الادبي من خلال حالات الكتابة لديه ولدى عدد من أبرز الادباء الروس، وبالتالي فهي معالجة قائمة على خبرة عمر بأكمله في هذا المجال الابداعي، وان قصرت.

الكل يكتب بطرق مختلفة، والكل يكتب بصعوبة، وكانت هناك ذات يوم جمعية ادبية، اسست عام ١٩١٨، وانهت ائتلافها حوالي عام ١٩٢٤، وكان فيها ادباء شبان مثل كونستانتين فيدين وفسيفولد ايفانوف واليزافيتا بولونسكايا وآخرين.

وقد اعتدنا على القول عندما كنا نلتقي: (تحياتي، ايها الصديق، تذكر-الكتابة صعبة)!

وقد قال لي أليكس مكسيموفتش غوركي، الذي اعتدت ان اقضي وقتاً كثيراً في بيته انذاك، شيئاً كهذا: (عندما تبدأ الكتابة، فانك ستشعر بان هناك اموراً كثيرة كان يمكنك القيام بها: فعليك ان تكون قد زرت شخصاً ما، لم تكن قد حلقت بعد، لم تكن قد ذهبت الى مكتب التحرير، لاتصدق ذلك، ينبغي ان تعمل في كل يوم، مبتدئاً في الوقت نفسه ان امكن ذلك، فاذا لم يكن مزاج الكتابة قد جاء بعد، تفحص مخطوطات، لك او لغيرك، اكتب رسائل، وتذكر ان كل رسالة تتطلب رداً، ولو بطاقة بريدية لاغير.

(عود نفسك على فكرة ان مايدعى بالالهام اذا لم يأت في كل يوم، فعليك ان تكون على الاقل عند مكتبك يومياً مستعداً للوقت الذي يأتي فيه).

(وانه لامر طيب ان يأتي في الصباح حيث يكون رأسك صافياً).

(هل انت متعب؟ لاتصدق ذلك، لاتسمح لنفسك ان تضعف! انه تعبك الاول، وعندئذ يأتي مايدعوه الرياضيون بدورتك الثانية، وذاك هو وقتك لتبدأ الكتابة..)

ان الجهود الادبية جهود عظيمة، والالهام يأتي في أثناء العمل، والكل يكتب بطرق مختلفة.

ولنبدأ بالرجال العظام حقاً، ألكسندر بوشكين. لقد كان يعمل، في الغالب، انطلاقاً من خطة، وكانت لديه خطة تلو خطة، وهكذا كان يكتب، بعد ان يكون اولاً قد وضع خطة، لكنه نفسه أقر بعدم وجود خطة لـ(إيفجيني أونجين). فقد نضجت القصة وآتضحت مع الزمن، فالأشياء تحيا حيواتها الخاصة، وعندما تكون مستمراً في الكتابة، اذا ماأفلح شيء ما، فان الاجزاء الحية التي آنسكبت فيها احلامك آنذاك هي (معاريفي القدامى، ثمار حلمي كله)- كما يدعوها بوشكين-هذه الاجزاء التي وجدت ذات مرة وتلاشت، وتجمعت الان على الورق، تبدأ تعيش حياة خاصة بها، تختلط، بتعبير أعمق، ترتبط بعضها بالبعض الاخر، تساعد او تناقض بعضها بعضاً.

كي تصبح كاتباً، يجب ان تصير متعوداً على جهود متناقضة عظيمة، أقول هذا كله نتيجة لخبرة طويلة، وانا نفسي أجد ان من الصعب تصديق هذا، لكنني بدأت بالظهور على مستوى النشر من عام ١٩٠٨فصاعداً.

هكذا تجد امامك مخطوطة، انها اكثر مهارة من كاتبها بسبب التفكير و (التأليف) مؤلف! من هو المؤلف؟ ليس ذلك الذي ينسق ويجمع الافكار والحالات، ويزنها فيما بعد ويختار منها بعناية، وهناك قول قديم: مكان لكل شيء، وكل شيء في مكانه، شيء يبرهن على اهميته، الاخر ليس هكذا. ففي عملية العمل الادبي بالذات تبرز الحقيقة الفنية، وهي أرفع من حقيقة الانطباع الأول، نظراً الى انها قد جرى التحقق منها عن طريق الربط.

انني لاأكتب طوال الوقت، فأنا افكر مع نفسي بلغة المسودات التمهيدية، لكن المسودات غالباً ماتتجاوز المؤلف، تدحض مافكر به اصلاً، فقد ورد في دفاتر تشيخوف انه رسم مسودة خطة لقصة (عنب الثعلب).

وتدور القصة حول موظف يقوم بتوفير نقوده، وكان قد قضى ذات مرة بعض الوقت في الريف، ويريد ان يستقر في احضان الطبيعة، ويحلم بما ستكون عليه الحال هناك. إلا ان الحياة انبرت له لتحرره من الوهم، وقد فكر تشيخوف بهذا ملياً لوقت طويل ثم دون ذلك قائلاً: (كان عنب الثعلب حامضاً، يا للحماقة، قال الموظف ذلك، ومات.) لقد كانت خطة القصة القصيرة محكمة جداً.

لكن القصة الفعلية ظهرت بشكل مختلف: فقد أكل الموظف أعناب ثعلب حامضة وكان يشعر بالرضا، فالرهيب جداً هنا هو الطريقة التي يحيا بها الناس على نحو أعمى، على نحو سيء، وهم راضون عن أنفسهم، يعتقدون بأنهم قد أنجزوا شيئاً ما، وهكذا، فقد كانت لدى تشيكوف خطة فكر بها جيداً، ولكنه نبذها عندما بدأ ابداعياً بربط وتنسيق اجزائها المختلفة.

وأنا لاأكتب عن عملي الخاص بي هنا، وانما عما ينبغي لعملنا ان يكون عليه- اني اشير الى الأعمال التي تتسم بالنبوغ.

فالفكر الانساني يصل من خلال المقارنة الى جوهر الاشياء، والكاتب المبدع يتحرك، بتقدمه من قصة الى قصة، ومن مسرحية الى مسرحية، نحو جوهر الأشياء ويبرز الى الصف الامامي، ويتحدث هناك، ويكون مفهوماً، اذ ان الفنان يعكس الكون مثل مرآة تليسكوبية.

تلك هي الطريقة التي كان يكتب بها تولستوي. وكان يقول ان الثورة الاجتماعية ليست مايمكن ان يحدث، انها مالايمكن تجنب حدوثه، كان يرى قدر العالم.

وكان دوستويفسكي ينتقل باتجاه المستقبل، متتبعاً الطريق الصعبة، من خلال فهمه للجوانب المعتمة من الروح، من رواية الى رواية، من افكار فوريه Fourier الاشتراكية الى الاكتشافات الجديدة العظمى المتعلقة بمستقبل الانسان، ومطالب الانسان حيال نفسه ينبغي ان تكون عظيمة، قال تولستوي مرة ان الانسان قوي، لكنه مشدود الى الأسفل بأفكار الذات، ولو استطاع ان ينسى مايتعلق بذاته، فسوف يكون قوياً عندئذ، من دون شك، والمرور المناسب من تولستوي لم يجتذب اهتماماً كثيراً، نظراً الى انه لم ينه قط هذه القصة الفريدة، واليكم ما قال: (انني مقتنع بان مايسكن الانسان ليس فقط قوى اخلاقية غير محدودة، بل وطبيعية غير محدودة، لكن هناك قوة كابحة مرعبة قد سلطت على تلك القوى، وهذه القوة الكابحة هي حب الذات، او بالاحرى تذكر الذات، وهذا مايؤدي الى العجز).

فإذا كان علينا ان نكون اقوياء في عصرنا، فيجب عندئذ ان نتذكر انفسنا، نتذكر الحياة التي عشنا، ويجب ان نرى عبر حياتنا الخاصة الى حيوات اناس اخرين.

ان التأثير في شكل قطعة من الكتابة هو تأثير في حقيقة تلك الكتابة، في الحقيقة التي لاندركها للوهلة الاولى. انك تنجز حقيقة مختلفة وحقيقة جديدة وانت تعمل، من خلال اعتمادك على نحو احلامك القديمة، على الفن القديم، على فلسفة عصرك، على خبرة الحياة.

انك تسألني كيف اكتب، انني اكتب بطرق متنوعة، لقد كتبت مواد عديدة، اكثر من الفين، كما اعتقد، ولو انني لم اعدها، كتبت، في الاقل، من خمسة عشر الى عشرين كتاباً- لا أستطيع الان عدها تماماً. على كل حال، لن ينفعنا تذكرها جميعاً، لقد كتبت العديد من السيناريوهات، لكنني اود ان استعيد قصة واحدة عن نفسي.

فقد طلب مني المخرج البارز نيف كوليشوف، ذات مرة، ان اكتب سيناريو، مع المحافظة قدر الامكان على عدد صغير من الشخصيات، مثالياً، ينبغي ان يكون هناك اثنان او ثلاثة، على الوجه الافضل.

وكان السيناريو يعتمد على قصة جاك لندن، (غير المتوقع -The Unexpected)..باحث عن الذهب قام بقتل زملائه، ولم يبق منهم حياً سوى رجل وامرأة، وقد قضينا وقتاً طويلاً بالسيناريو، وكان الشريط السينمائي بعنوان (وفقاً للقانون)، وهو فلم صامت اثبت انه يتميز بالمتعة، وكنت قد لاحظت لدى جاك لندن ان العاملين بتعدين الذهب لم يكونوا جميعاً يشتغلون لأنفسهم.

فهناك مستأجرون ايضاً، وحين اشتغلنا بالسيناريو، قررنا ان يكون العنف اولاً مع احد العمال-وهو الذي وجد الذهب للاخرين جميعاً، في الوقت الذي كانوا يأكلون فيه حصته من الطعام، ولم يكن القاتل محقاً، ولكن هياجه مفهوم.

وقد استلمت، عن طريق متحف سيرجي أيزينشتاين، نسخاً مصورة من صحيفة كانت تصدر عام ١٩٥٥,

فاكتشفت ان جاك لندن كان قد استخدم قصةً حقيقية، وقد نشرت مع صور ايضاحية، ثم كانت هناك دعوى قضائية، واتضح ان السيناريو الذي كتبناه كان اقرب الى الحقيقة مما رواه جاك لندن.

فما الذي حدث فعلاً؟ ولماذا حدث هذا؟

بعد خمس وعشرين سنة من كتابة القصة، توصل الفنان بطريقته الخاصة، وهو يشتغل بالرواية المعدة للشاشة ويشرح معنى الصراع، الى قرار الأشياء، الى حقيقتها. وقد درسنا القضية لابصفة محققين وانما بصفة فنانين، وكنا قادرين على فهم جوهر الأمر وجريرة الأشخاص المتورطين فيه.